ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

الزيتونيون والوعي بقيمة الثقافة في تحقيق الاستقلال الكامل

الغابري عبد الباسط
باحث تونس

تاريخ الاستلام: 2016/12/05 تاريخ القبول: 2017/02/12

الملخص:

تعدّ خمسينيات القرن العشرين منعرجا حاسما في تاريخ تونس المعاصر، إذ تضمّنت إرهاصات أولى تشي بأهمّ خيارات تونس ما بعد مرحلة الاستعمار الفرنسي المباشر. ولئن تباين وعي الزيتونيين بتلك المستجدّات، فإنّ الثابت لدينا أنّ الشبيبة الزيتونية ممثّلة في حركة صوت الطالب الزيتوني كان وعيها عميقا بخطورة المسألة الثقافية في حاضر تونس ومستقبلها. وإذا كان ظاهر نضالها المرير تركّز في مسألة تعصير التعليم الزيتوني في مستوى البرامج والهيكلة والتأطير والبنية الأساسيّة، فإنّ باطنه قد تجاوز ذلك إلى الربط بين التعليم والتثقيف ربطا محكما نظرا إلى أنّه لا فائدة ترجى من تعليم مفصول عن الثقافة الوطنية التي تشكّل أحد أسس الشخصية القاعدية من منظور التيار الثقافي الأمريكي ممثّلا في رالف لنتون R. Linton وغيره. وهو تصوّر مقابل للسياسة الثقافية الاستعمارية. وقد عنى إبراز العامل الثقافي إحياء الثقافة العربيّة الإسلاميّة وتطويرها للإسهام الجاد في تحقيق استقلال حقيقي يضمن المساهمة الفعّالة في الحضارة الإنسانية دون إهدار الحقّ العربي الإسلامي في المحافظة على خصوصيّته الحضارية والحقّ في الاختلاف الفكري والفلسفي. وهو ما يمكن إدراجه ضمن العقلانية الموسّعة أو "العقلانية المفتوحة" على حدّ تعبير إدغار موران E. Morin التي لا ترى تعارضا بين الدين والحداثة بصفتها "مشروع غير مكتمل" بعبارة هابرماس. Habermas

ستتناول مقاربتنا هذه الإشكالية في محورين متكاملين: محور نظري تبحث فيه في معنى ربط الثقافة بالاستقلال انطلاقا من إشكاليات المتخيّلات الاجتماعية والهوية ومرتكزات الشخصية الأساسية والأنظمة الرمزية، ومحور تحليلي يتفرّع إلى عنصرين أساسيين: عنصر أوّل نهتم فيه بمعنى الثقافة في تصوّر طلبة الخمسينيات بالزيتونة، وعنصر ثان نتعرّض فيه إلى دور الثقافة في تحقيق استقلال كامل وأبعاد المشروع الثقافي الزيتوني.

المنارة للاستشارات

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

.الكلمات الدالة:

الزيتونيون– الثقافة– الاستقلال– تونس– التعليم

العنوان بالإنجليزية:

.Abstract:

The Fifties of the twentieth century is considered crucial in the modern history of Tunisia, as it included the first indications of significant Tunisia options beyond the stage of direct French colonialism. While awareness zeitounis contrast to those developments, the hard our Zaytuna students who represent the voice of the student movement Zitounis was a deep awareness of the seriousness cultural issue in the present and future of Tunisia.. If the apparent struggle bitter focused on the issue of modernization of Zaytuna education programs and restructuring and supervision and infrastructure level, the essence has exceeded to the linkage between education and education linked arbitrator as it did not benefit in an unbroken teaching of the national culture, which constitute one of the foundations of basal personal American cultural mainstream perspective represented by Ralph Linton and others.. It is perception versus colonial cultural policy. The cultural factor is intended to develop Arab-Islamic culture to contribute seriously to achieve true independence ensures effective contribution to the human civilization without wasting the Arab-Muslim the right to maintain the privacy of the cultural and the right to the intellectual and philosophical differences. Which can be included in the extended rationality or "open rationality" as far as Edgar Morin expression that does not see a conflict between religion and modernity as "incomplete project" with Habermas .

Our approach will address to this problem in two axes complementary: the focus of search, in the sense of linking culture independence from problematic of social imaginaries and identity and personal foundations of basic and symbolic systems, and the focus of analysis is divided into two main components: first we take care of it in the sense of culture in the perception of the fifties students Zaytuna mirror, and an element of a second element we are exposed to the role of culture in achieving full independence and cultural dimensions of the zaitounis project.

Key words:

Zeitounis - Culture - Independence - Tunisia - Education

لئن لم تغب قضيّة الثقافة ومتفرّعاتها عن تصوّرات النخبة التونسية منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر، فإنّ مرجعيات مشاريعهم الثقافية ومسالك تكريسها والنماذج المأمول ترسيخها قد تباينت إلى حدّ التقابل. و كان من الممكن أن يكون ذلك التباين معينا في صياغة تعدّدية ثقافية وحضارية خلاّقة.

الدارة للاستشارات

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

لكن عوامل سياسية وسيسيوسيكولوجية أعاقت ذلك التطوّر المأمول. ويعدّ في هذا السياق المشروع الثقافي للزيتونيين الذي تعاقبت في صياغته أجيال متلاحقة جديرا بالاستقراء والتمحيص لما يتضمّنه من معالم مشروع حضاري كان من الممكن أن يؤدّي على المدى البعيد إلى تحقيق استقلال حقيقي وصياغة نموذج عربي إسلامي بديل يمكّن من استعادة الفعالية الحضارية المعطّلة واستئناف الفعل التاريخي.

سنحاول البحث في إشكالية وعي الزيتونيين بقيمة الثقافة في تحقيق الاستقلال الكامل انطلاقا من مستويين: مستوى نظري ومستوى تحليلي. يشمل المستوى النظري توضيح معنى ربط الثقافة بالاستقلال من خلال عناصر المتخيّلات الاجتماعية والوعي الجمعي والهويّة والشخصية الأساسية ونسق التعليم. أمّا المستوى التحليلي فيتّصل بتفريع أشكال وعي الزيتونيين بذاتهم وبقيمة الثقافة في تحقيق الاستقلال انطلاقا من النظر في تركيبة الزيتونيين ومفهومهم للاستقلال ونوعية مشروعهم الثقافي ومرتكزاته.

1-معنى ربط الثقافة بالاستقلال.

يستندّ الربط الذي نفترضه بين الثقافة والاستقلال إلى معطيات متعدّدة منها ما يتّصل بعلاقة الثقافة بالشخصية الأساسية أو القاعدية والهويّة وقيمة المتصوّرات أو "المتخيّلات الاجتماعية"[1] في صياغة براديغم مشترك. ذلك إنّه يستحيل الحديث عن تثاقف أو تصادم بين الحضارات دون أن يكون هناك شعور بالمغايرة والاختلاف بدليل أنّه عندما يتمّ الحديث عن ثقافة ما مثل الثقافة الأمريكية سرعان ما يتبادر إلى الأذهان ملامح الشخصية الأمريكية المحدّدة في بعض السمات والمقوّمات شأن البراغماتية والفردانية وتقديس العمل والاستقلالية[2].

ولئن كان تقسيم الثقافة إلى قطاعات مادية وفكرية واجتماعية شائعا عند الأنثربولوجيين، فإنّه ظلّ تقسيما تنظيميا[3]. ذلك أنّ مفهوم الثقافة شهد تطوّرات متلاحقة تمّ فيها صهر تلك القطاعات التنظيمية المختلفة[4] مع التيّار الثقافي الأمريكي ممثّلا في مرغريت ميد M.Meed وأبرام كردينار A. Kardiner ورالف لنتون R. Linton. فلنتون عرّف ثقافة المجتمع بكونها "طريقة حياة أفراده، وهي مجموعة من الأفكار والعادات التي تعلّموها وساهموا فيها ثم نقلوها من جيل إلى آخر"[5].

إذا كان لنتون قد اعتمد في صياغته لمفهوم الثقافة المذكور آنفا على تعدّد حاجيات الإنسان وتوزّعها بين الجانبين المادي والنفسي، فإنّ قيمته الأساسية تكمن في تمهيده لصياغة مفهوم سوسيولوجي للثقافة

DM,LREOCMI

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

يستوعب مختلف المقاربات باعتباره نبّه إلى الارتباطات الحاصلة والعلاقات القائمة بين أنماط الإنتاج الفكري من جهة ومعطيات البيئة الاجتماعية بكلّ أبعادها الاقتصادية والسياسية التاريخي منها والمعاصر من جهة أخرى"[6]. وبهذا المعنى تعدّ الثقافة "ماض كما هي حاضر ومستقبل من المنظور السوسيولوجي، أي أنّ في كلّ ثقافة نسقا موروثا ونسقا آخر يكتسبه الخلف بالقوّة من الأنماط الثقافية السائدة والمؤسّسات التي تقوم بإنتاج وإعادة إنتاج شروط الإنتاج الثقافي، وهذه الناحية من الثقافة قام بتحليلها بيير بورديو Pierre Bourdieu في مؤلّفاته المختلفة[7].

وقد حرصت الاتّجاهات الوظيفية للثقافة على تحديد النظم المختلفة للثقافة وفي هذا الصدد ميّز مالينوفسكي ,Bronisław Malinowski بين تسعة نظم هي النظم الأسرية والتربوية والدينية والأخلاقية والجمالية واللغوية والاجتماعية والقانونية والسياسية[8]. والعلاقة بينها تقوم على أساس التكامل[9].

إنّ ذلك التكامل بين تلك النظم المحدّدة للثقافة يجعلها بمثابة "مجموعة من آليات الضبط–خطط ووصفات وقواعد وتعليمات وهو ما يدعوه مهندس الكمبيوتر بالبرامج الموجّهة للتحكّم بالسلوك"[10] على حدّ تعبير كليفورد غيرتز Clifford Geertz. وهو ما يمكن عدّه مبرّرا لمشروعية الحديث عن مميّزات ثقافية لأمّة من الأمم على أساس أنّ تلك النظم قبل أن تكون نتاجا لتجارب تاريخية متلاحقة، كانت ثمرة ل"نظام الاستعدادات والتصوّرات"[11] سواء المترسّخة في المخيال الفردي والجمعي أو الخاضعة إلى إكراهات الأيديولوجيا المهيمنة. إضافة إلى أنّه مادام الإنسان يتميّز عن جميع المخلوقات بقدرته على صنع الثقافة، فإنّ كلّ مجتمع بشري ينفرد آليا بخصائص ثقافية مميّزة عن باقي المجتمعات[12].

إنّ الإقرار بحقيقة التميّز الثقافي بين المجتمعات والأمم في نطاق ما يعرف بالخصوصية الثقافية لا يمكن أن يستمدّ معناه إلاّ في ضوء التسليم بحقيقة ثانية من جنس تلك الحقيقة الأولى. تتمثّل تلك الحقيقة الثانية في حاجة الثقافة إلى الرعاية والتجديد والإضافة لتأمين وظائفها المتعدّدة سواء بالنسبة إلى الفرد أو إلى المجتمع. ويشير بارسونز Parsons وبالس Bales في هذا الصدد إلى أنّ "الثقافة لا تنتقل ببساطة إلى الأطفال ولا يمكن تغييرها أبدا. وإذا هي لم تكرّر وتعزّز في السلوك الحقيقي فبالإمكان تغييرها. لذا فهي تتطلّب دائما رعاية وإعادة بناء"[13].

المنارة للاستشارات

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

ولّما كانت النظم الرمزية من لغة ومعتقدات وتعبيرات فنيّة مكوّنا من مكوّنات الثقافة فهي تضطلع بعديد الوظائف مثل الهيمنة أو التضامن[14]. لكن تبقى وظيفة تحديد الهويّة أبرزها على الإطلاق، إذ لا جدال في أنّ الهويّة إفراز من إفرازات الثقافات[15] بحكم ما تختزنه المنظومات الرمزية وغيرها من المحدّدات المكوّنة للثقافة من سمات ثقافية مميّزة خاصّة بمجموعة بشرية ما أو بأمّة من الأمم تسعى إلى ترسيخها جيلا عن جيل. ولعلّه لهذا السبب يسوغ الحديث عن مفهوم الشخصية الأساسية الذي هو مفهوم تجريدي قبل أيّ شيئ آخر.

يضمر الحديث عن الهويّات أو الشخصيات الحضارية المتعدّدة إقرارا صريحا ومضمرا بوجود نوعين من العلاقات بينهما: تتمثّل العلاقة الأولى في ما يمكن اختزاله في التثاقف أو التعارف. وهي بلا شكّ علاقة إيجابية نظرا إلى أنّه لا يمكن لأي ثقافة أن تضمن وجودها وتطوّرها دون انفتاح مقنّن على الثقافات الأخرى. أمّا العلاقة الثانية فهي علاقة سلبية تقوم على الهيمنة والصراع، وهي غالبا ما تكون في علاقة "الغالب بالمغلوب" وفق المصطلح الخلدوني.

يمكن القول أنّه في ضوء تلك العلاقات خاصّة العلاقة الثانية يمكن تنزيل طرحنا لإشكالية دور الثقافة في تحقيق استقلال كامل انطلاقا من نموذج النخبة الزيتونية خلال النصف الأوّل من القرن العشرين. ونعني بالاستقلال الكامل توفير شروط الإقلاع الحضاري في نطاق مقاربة تجمع بين الحرص على التحرّر السياسي والاقتصادي من قبضة الاستعمار الفرنسي وتعزيز مقوّمات الشخصية الوطنية والقومية استنادا إلى سياسة ثقافية تقدّم الصياغة على الدعاية والعمل المؤسّس بعيد المدى على الحلول الارتجالية الآنية. ولا شكّ أنّ التعليم يعدّ ركنا أساسيا في بناء الإنسان الفاعل. ولعلّه لهذا السبب أولى الزيتونيون مسألة تطوير التعليم الزيتوني وتجديده أهميّة قصوى طيلة ما يربو عن النصف قرن. ولم يكن ذلك الاهتمام مقطوع الصلة بموقفهم عن مستقبل تونس المعاصرة. وسنحاول في العنصر التالي النظر في أشكال وعي الزيتونيين بالعلاقة بين الثقافة والاستقلال وطبيعة مشروعهم الثقافي والحضاري.

2-الزيتونيون والوعي بقيمة الثقافة في تحقيق الاستقلال الكامل.

المنارة للاستشارات

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

يتطلّب الحديث عن مفهوم الاستقلال وعلاقته بالثقافة في الوسط الزيتوني تحديد بعض الضوابط الأساسية اجتنابا للتعميم. يمكن أن نذكر من بين تلك الضوابط تركيبة الوسط الزيتوني وأهمّ فاعليه الاجتماعيين ثم معنى الاستقلال فالمشروع الحضاري للزيتونيين.

أ–تركيبة الزيتونيين: لقد كانت المؤسّسة الزيتونية طيلة النصف الأوّل من القرن العشرين قطبا متعدّد الأبعاد. يبرز ذلك التعدّد في تنوّع المنطلقات والتوجّهات لأسباب تاريخية وعقائدية وديمغرافية. ويمكن تصنيف ذلك التعدّد في الثنائيات التالية:

•ثنائية المحافظة والإصلاح: إذا كان بعض الزيتونيون اعتقدوا أنّ المحافظة على الطابع التقليدي للزيتونة يقيها مهاوى الانحراف عن وظائفها الدينية والروحية، فإنّ صنفا آخر من الزيتونيين عدّ الإصلاح شرطا ضروريا لاستمرارية المؤسّسة الزيتونية في واقع متسارع التغيّر[16]. وقد برزت هذه الثنائية منذ تولّي لويس ماشويل Louis Machuel إدارة التعليم العمومي يوم 6 ماي 1883[17]، وتوضّحت اكثر مع تحرّكات الطلبة الزيتونيين سنة 1910 وفي الفترات اللاحقة خاصّة خلال الثلاثينيات مثلما تفصح عنه محاضر جلسات إصلاح التعليم الزيتوني[18].

–ثنائية المالكية والحنفية: تظهر هذه الثنائية بصفة خاصة عند اجتياز مناظرات التدريس بالزيتونة واختيار المترشّحين على أساس المساواة بين المذهبين المالكي والحنفي. وإذا كان الشيخ محمد الطاهر ابن عاشوروبعض فقهاء المالكية قد عارضوا الاختيار على أساس المذهب واعتباطية المساواة بين المذهبين في اختيار المقبولين باعتبار التفاوت الصارخ بين العدد الكبير للمترشّحين من المذهب المالكي مقابل العدد المحدود من المترشّحين من المذهب الحنفي، فإنّ شيخ الإسلام إضافة إلى الشيخ محمد الهادي بن القاضي عارضا ذلك خلال جلسة الإصلاح الرابعة عشر يوم 23 نوفمبر 1925. وقد برّروا ذلك بأنّ الغاية من ذلك التصنيف المذهبي رعاية العلم وضمان استمرارية المذهبين وليس محاباة المترشّحين من المذهبين[19].

•ثنائية الآفاقيين والبلديين: ترتبط بعلاقات متعدّدة بالثنائية السابقة في ما يتّصل بانتماء معظم الطلبة الآفاقيين إلى المذهب المالكي وانحصار المذهب الحنفي في البيوت الكبيرة المقرّبة من الباي. يرجع تزايد عدد الطلبة الزيتونيين الآفاقيين إلى ما بعد الحرب العالمية الأولى، فقد قدّرت نسبة تثيلهم

المنارة للاستشارات
DM,LREOCMI

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

ب75٪ خلال الثلاثينات. وقد انحدر أغلب طلبة الزيتونة قبل تلك الفترة من العاصمة والمدن الكبرى مع تميّز أبناء البيوت التونسية الكبيرة[20].

تبرز هذه الثنائية في فترات الأزمات خلال وجود اضطرابات اجتماعية وسياسية خاصّة أثناء التنافس في المناظرات الزيتونية مثلما حصل في أواخر أكتوبر 1934 أثناء إجراء امتحان التطويع حيث تمّ ترويج إشاعة بين الطلبة تشير إلى وجود جمعية سرية مكلّفة بالانحياز إلى الطلبة البلديين وإعاقة نجاح الطلبة الآفاقيين في الامتحان والمناظرات الإدارية[21].

•ثنائية الشباب والشيوخ: تعدّ ثنائية نسبية بما أنّ بعض الشيوخ الزيتونيين تميّزوا برؤية تاريخية سليمة مكّنتهم من استيعاب حقيقة التحوّلات وطبيعة المستجدّات. تتلخّص هذه الثنائية في بروز أجيال متلاحقة من الشباب الزيتوني منذ إضراب سنة 1910 للمطالبة بإصلاح التعليم الزيتوني وجعله مواكبا لروح العصر. ويمكن الإقراربأنّ لجنة صوت الطالب الزيتوني تعدّ أرقى ما وصل إليه وعي الطلبة الزيتونيين بما هي تتويج لسلسلة من النضالات المريرة في سبيل تطوير الثقافة العربية الإسلامية في تونس.

لا شكّ أنّ تعدّد تركيبة الزيتونيين سيؤثّر في مدى قوّة مواقفهم وتماسكها في عديد القضايا مثل مسألة الاستقلال الذي ربطناه في موضوع هذه المحاضرة بالثقافة. فما معنى الاستقلال في تصوّرات النخبة الإصلاحية الزيتونية؟

ب–معنى الاستقلال عند النخبة الزيتونية الإصلاحية: لئن كان لا يتسع السياق للإتيان على معنى الاستقلال عند مختلف الفاعلين الزيتونيين، فإنّه يمكن الاكتفاء ببعض النماذج والعيّنات مع التركيز على الموقف الذي ينسجم مع جوهر الإشكالية المطروحة.

إذا كان معنى الاستقلال قد ارتبط في فكر عبد العزيز الثعالبي ومحمد الطاهر ابن عاشور بضرورة تجاوز الأسباب العميقة التي تحول دون تحقيقه، وهي "أسباب عامة متسبّبة في تخلّف المسلمين"[22] على حدّ تعبير محمد الطاهر ابن عاشور أو "التركيز على روح التحرّر في القرآن"[23] ودحر الاستعمار الفرنسي[24] عند الثعالبي، فإنّ الخطاب الطلابي الزيتوني الذي صاغته لجنة صوت الطالب الزيتوني في صحيفتيها "صوت الطالب" و"صدى الزيتونة" ركّز على الأسباب المباشرة لكن دون إغفال بقية الأبعاد

المنارة للاستشارات
DM,LREOCMI

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

الأخرى. إذ غالبا ما تتجاور مفاهيم الوطنية والأمتين العربية والإسلامية وبنسبة أقلّ الأمّتين المغاربية والإفريقية جنبا إلى جنب. يبرز في هذا الصدد مفهوم "الاستقلال القومي"[25] باعتباره ثمرة من ثمار الوطنية الحقيقية لا "الوطنية المهداة"[26]. يشرح الشيخ محمد البدوي الفرق بين هذين المستويين من الوطنية بالتركيز على أنّ الوطنية الحقيقية لا تقبل بالتنازل عن القضايا المصيرية ومقوّمات الشخصية الوطنية مهما تبدّلت الظروف وقست الأحوال[27].

ينبني هذا الموقف من الوطنية على فهم عميق لحقيقة الصراع مع الاستعمار الفرنسي. فلئن كان ظاهر الصراع تفاوت موازين القوى بين الآخر المتمكّن ماديا والذات المنهوكة بمساوئ الحكم المطلق و"تقليدية البؤس"(traditionalisme du désespoir) [28]، فإنّه في الحقيقة صراع ثقافي وحضاري تسوّقه الأيديولوجيا الاستعمارية على أساس مهمّة ترقية المجتمعات المتخلّفة لتمدينها وتمكينها من أن تحكم نفسها بنفسها[29]. بينما كان في الحقيقة يسعى وفق استراتيجيا مقنّنة إلى تذويب الخصوصيّة الحضارية ضمن ما عبّر عنه هيقل ب"إفريقيا الأوروبية"[30] في محاضرات فلسفة التاريخ. وقد كثّف الخطاب الطالبي شرحه لهذه النقطة المحورية في مقال نشر يوم 15 ديسمبر 1950 بصحيفة صوت الطالب تحت عنوان "أمّة تذوب بين معاهدات تحت الضغط ومفاوضات تحت طيّ الخفاء". كتب الشيخ محمد البدوي حرفيا ما يلي: "واصل الشعب التونسي في رباطة جأش وقوّة إيمان صراعا عنيفا كانت ومازالت تدور رحاه على أديم العروبة، ومبدإ نشر الإسلام في الأصقاع الإفريقية. ذلك الصراع الطاحن الذي يهدف القائمون به تحت شتّى العناوين إلى قطع لسان القرآن، وطمس معالم الدين الإسلامي الحنيف، وتحويل هذه الأرض التي أريقت فيها دماء الأباء والأجداد وتعالت في قممها ووهادها أصوات الحقّ وصرخات الجهاد إلى رقعة أوروبية وموطن غربي وملجإ فرنسي، يعيشون فيه عن وفرة وثراء ويلتجئون إليه كلّما ألّمت بهم الملمّات أو طاردت الضباع الجائعة الثعالب الجشعة فنزلت هذه إلى أحياء الطيور الداجنة تطحن رؤوسها طحنا وتلقي بأرياشها في مهبّ الرياح العواصف"[31].

لم يكن الوعي بحقيقة الصراع وانعكاساته المختلفة عفو خاطر، وإنّما استند إلى فهم عميق للسياسة الثقافية الاستعمارية التي تقوم على عدّة دعائم منها:

المنارة للاستشارات

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

–الحطّ من قيمة اللغة العربية فقد سبق للمقيم العام مونصرون Manceron أن صرّح في يوم 13 أكتوبر 1932 أنّ من شروط التحاق تونس بالحضارة الحديثة الإقرار بعجز اللغة العربية مقارنة باللغة الفرنسية من ناحيتي الوضوح والدقّة[32].

–الحرص على عدم ضخّ دماء جديدة في جامع الزيتونة وهو ما يفسّر تعدّد جلسات إصلاح التعليم الزيتوني دون الوصول إلى إصلاحات جذرية. ذلك أنّ تعصير التعليم الزيتوني يتعارض مع مصالح فرنسا الاستعمارية بما أنّ بروز نخبة ذات ثقافة عربية إسلامية منفتحة على علوم العصر ومستجدّاته من شأنه أن يفسد برامجها ويعرقل مصالحها[33].

–احترام تقاليد المسلمين ما لم يمس ذلك مصالح الاستعمار[34]، وهو ما يفسّر غضّ سلطة الحماية النظر عن الزوايا والطرق وتزايد عدد الطلبة الزيتونيين من عقد إلى آخر وعدم اعتراضهم على حصر جامع الزيتونة في طابعه الديني.

إنّ ذلك الوعي بحقيقة السياسة الثقافية الاستعمارية التي تعمل على إيجاد "عقلية"[35] تضمن مصالحها على حدّ وصف الخطاب الطلابي يعدّ مجهرهم الأساسي الذي استبقوا بواسطته مواقف عديد القوى السياسية من الاستقلال الداخلي بما فيهم الزعيم صالح بن يوسف. إذ سبق للجنة صوت الطالب الزيتوني أن عدّت التجربة التفاوضية الثانية سنة 1950 وحكومة محمّد شنيق المنبثقة عنها تراجعا لا مبرّر له في مسيرة القضيّة التونسية بما أنّه كان هناك إجماع وطني منذ مؤتمر ليلة القدر يوم 23 أوت سنة 1946 على المطالبة بالاستقلال التام. وقد نبّهوا في هذا الصدد وقبل خمس سنوات من اندلاع الخلاف اليوسفي–البورقيبي إلى سلسلة التراجعات المخيّبة للآمال التي ينتهجها الديوان السياسي للحزب الدستوري الجديد، إذ تمّ التراجع من الاستقلال التام إلى الاستقلال الداخلي إلى النقاط السبع إلى المشاركة في الحكم التفاوضي سنة 1950 [36]. إجمالا يمكن القول أنّ معنى الاستقلال عند الزيتونيين اقترن بالمشغل الثقافي والتعليمي تحديدا. ومن هنا فإنّه قد اجتنب الآفات التي لحقت تصوّرات بقيّة العناصر المكوّنة للمشهد التونسي خلال خمسينيات القرن الماضي. ففيم تتمثّل مقوّمات المشروع الثقافي الزيتوني؟

الدارة للاستشارات

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

ج–المشروع الثقافي الزيتوني: لم يغب مصطلح "المشروع الثقافي" ولا مفهومه عن الأدبيات الزيتونية. ويقترن الحديث عن ذلك المشروع الثقافي بفهم محدّد للثقافة يجعلها مسألة مصيرية تشبه "الماء" و"الهواء" إلى حدّ أنّه لا يمكن دونها الحديث عن حياة إنسانية. يكتسب ذلك التشبيه وجاهته من تقاطع الثقافة بالجانب الروحي والعقائدي للنخبة الزيتونية، إذ لطالما كان مبدأ الدفاع عن العروبة والإسلام عنوانا جامعا لكلّ التحرّكات المواجهة للاستعمار الفرنسي. إضافة إلى الجانب التعليمي الذي توضّحت معالمه منذ لائحة محمد الصالح المهيدي الشهيرة[39] سنة 1929 ونضج في "دستور الزيتونيين الجامع" مع لجنة صوت الطالب الزيتوني سنة 1950 والشعبة العصرية الزيتونية بداية من سنة 1951.

يقوم المشروع الثقافي الزيتوني على توظيف "الرأسمال الرمزي" للزيتونة مع وجوب تطويره وترقيته سواء بتجديد الهياكل والمؤسّسات بإحداث حيّ زيتوني (معهد ابن شرف حاليا) وكلية زيتونية جديدة موقعها البناء الذي شيّدت عليه كلية 9 أفريل الحالية أو بإدخال إصلاحات بيداغوجية وتربوية تشمل مواد التدريس ومناهجها والانفتاح على اللغات والعلوم الصحيحة[41].

وقد كان يمكن للشعبة العصرية الزيتونية أن تتطوّر إلى مشروع تعليمي وطني بمقدوره أن يصبح نموذجا مغاربيا وعربيا إسلاميا خاصّة أنّه تزامن مع محاولات مقنّنة ومتدرّجة في تعريب المصطلحات العلمية. غير أنّ رغبة السلطة البورقيبية في دولنة المجتمع إضافة إلى تعارض ذلك مع طموحات النخبة النافذة ذات الثقافة الفرنسية في الاستئثار بجلّ المناصب والمراكز الحيوية في دولة الاستقلال مثلما أشار إلى ذلك محمد عابد الجابري في تقريره عن التعليم ببلدان المغرب العربي أجهض ذلك المشروع، فأدمجت الشعبة العصرية في الشعبة "أ" ضمن مشروع توحيد التعليم التونسي الذي صاغه المتفقّد الفرنسي جان دوبياس Jean Debiesse سنة 1958. يمكن إدراج ذلك المشروع الثقافي الذي صاغه الزيتونيون على امتداد أجيال متلاحقة ضمن "العقلانية الموسّعة" أو "العقلانية المفتوحة"[42] بعبارة إدغار موران E. Morrin. وهي على نقيض العقلانية الأداتية والمجرّدة لا ترى تعارضا بين الإسلام وقيم التقدّم والتحرّر والعدالة. وقمين بنا الإشارة في هذا السياق إلى أنّ مفهوم الديمقراطية لم يكن غائبا

DM,LREOCMI

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

عن الخطاب الذي صاغته لجنة صوت الطالب في صحيفتيها، إذ تمّ التمييز بين ديمقراطية شكلية موهومة وديمقراطية حقيقية فعلية.

لقد ارتبط مفهوم الاستقلال عند الزيتونيين بصياغة مشروع ثقافي ينفذ إلى روح الحداثة فيراهن على توظيف الرأسمال الرمزي للزيتونة وقابليتها إلى أن تفرز نسقا تعليميا مبتكرا يسهم في تكوين مجتمع متصالح مع ذاته ومع الآخر في نطاق الاحترام المتبادل والمصالح المشتركة. غير أنّ عدّة عوامل مركّبة سواء في ما يتّصل بالانشقاقات الحاصلة داخل المؤسّسة الزيتونية ولجنة صوت الطالب تحديدا أو عوامل خارجية شأن طبيعة الأيديولوجيا الاستعمارية وخيارات السلطة البورقيبية أجهضت ذلك المشروع.

الهوامش :

[1]–تشارلز تايلور، المتخيّلات الاجتماعية الحديثة، ترجمة الحارث النبهان، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، بيروت، 2015، ص 29.

[2]–باسم خفاجي، الشخصية الأمريكية وصياغة القرار السياسي الأمريكي، ط1، المركز العربي للدراسات السياسية، 2005، صص 58–101.

[3]–عماد عبد الغني، سوسيولوجيا الثقافة المفاهيم والإشكاليات من الحداثة إلى العولمة، ط5، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2006، ص 48.

[4] -Jean Pierre Martinon, Sociologie de la culture, Encyclopédia Universalis, France S/A , 1993, 6/954.

[5]–هارلمبس وهولبورن، سوسيولوجيا الثقافة والهوية، ترجمة حاتم حميد محسن، ط1، دار كيوان، دمشق، 2010، ص 8.

[6]–عبد الغني، سوسيولوجيا الثقافة، م س، ص 87.

[7]–م ن، صص 87–88.

[8]–م ن، ص 91.

[9]–م ن، ص ن.

[10]–كليفورد غيرتز، تأويل الثقافات، ترجمة محمد بدوي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2009، ص 51.

[11]– عبد الغني، سوسيولوجيا الثقافة، م س، ص 103.

[12]– عبد الغني، سوسيولوجيا الثقافة، م س، ص 115.

المنارة للاستشارات

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

[13] -Parsons, I, and Bales, R,E, (adj) (1955) Family, Sociolisation and Interaction process the free press New work, p301.نقلا عن هارلمبس وهولبورن، سوسيولوجيا الثقافة والهوية، م س، صص 32–33.

[14]–بيير بورديو، الرمز والسلطة، ترجمة عبد السلام بنعبد العالي، ط2، دار توبقال، الدار البيضاء، 1990، صص 52–54.

[15]–وهو ما يذهب إليه ستيفان فروش Stephen Frosh راجع: هارلمبس وهولبورن، سوسيولوجيا الثقافة والهوية، م س، ص 15.

[16] -Mustapha Kraiem, L'université de la Zitouna dans les années trente, revue tunisienne des sciences sociales, Année 1987, Publication du C.R.E.S, Université de Tunis, p50.

[17]– راجع: علي الزيدي، حركة إصلاح التعليم بجامع الزيتونة منذ نشأتها حتّى لجنة صوت الطالب الزيتوني، المجلة التاريخية المغاربية، ع 35–36، ديسمبر 1984.

[18]–عبد الجليل التميمي، محاضر جلسات إصلاح التعليم الزيتوني، المجلة التاريخية المغاربية، عدد 21 و22 أفريل 1981، ص 16.

[19]– التميمي، محاضر جلسات إصلاح التعليم الزيتوني، م س، ص 24.

[20] - Kraiem, L'université de la Zitouna…, op.cit, p54.

[21]–أشار الطلبة إلى أنّ هذه اللجنة ترأّسها الشيخ مختار بن محمود وبعضوية الشاذلي بن القاضي ومحمد بن القاضي والشيخ البشير النيفر والشيخ الطاهر النيفر…، راجع
- Kraiem, L'université de la Zitouna…, op.cit, p76.

[22]–محمد الطاهر ابن عاشور، أليس الصبح بقريب، الشركة التونسية للتوزيع، 1967، ص 114.

[23]–راجع عبد العزيز الثعالبي، روح التحرّر في القرآن، دار الغرب الإسلامي،

[24]– عبد العزيز الثعالبي، تونس الشهيدة، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1988.

[25]–محمد البدوي، راجع حكمك في الزيتونيين أيّها الشعب، صوت الطالب الزيتوني، السنة الأولى، ع 38، 13 جوان 1951. راجع كذلك كتابنا تونس العميقة الذي جمعنا فيه مقالات الشيخ البدوي، الدار التونسية للكتاب، 2014، ص 171.. وسنكتفي من هنا فصاعدا بالإشارة إليه كلّما اعتمدنا مقالات الشيخ البدوي.

[26]–تونس العميقة، م س، ص 175.

[27]–م ن، ص ن.

[28] -Hichem Abdessamed, La résidence face a la question de la réforme de l'enseignement Zaytounien (1930-1933) in, Les mouvement politiques et sociaux dans la Tunisie des années 1930. Acte du 3em séminaire sur l'histoire du

المنارة للاستشارات

ISSN : 1112-945X
E- ISSN : 2571-9742
DM, LREOCMI

Mouvement national (17-18-19) mai 1985, Sidi Bousaid, Tunis, Publication scientifique tunisienne, 1987, p 802.

[29] جيرار لكلارك: الأنثربولوجيا والاستعمار، ترجمة جورج كتورة، ط2، المؤسّسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، 1990، ص 161.

[30] –هيقل، العقل في التاريخ، المج 1 من محاضرات في فلسفة التاريخ، ترجمة إمام عبد الفتاح إمام، ط3، دار التنوير، بيروت، 2007، ص 169.

[31] –محمد البدوي، أمة تذوب بين معاهدات تحت الضغط ومفاوضات تحت طيّ الخفاء ضمن كتاب تونس العميقة، م س، ص 196.

[32] - Abdessamed, La résidence face à la question de la réforme, op.cit, pp 802-806.

[33] -, op.cit, p 804.

[34] -, op.cit, pp 804-806.

[35] –راجع تونس العميقة ، م س ، ص 171.

[36] –عبد الباسط الغابري، صوت الطالب الزيتوني حركة ثقافية سياسية، مركز النشر الجامعي، 20111، ص 292.

[37] – راجع تونس العميقة ، مس ، صص 197–198.

[38] – الغابري، صوت الطالب الزيتوني حركة ثقافية سياسية، ، م س، ص 387.

[39] –محمد الصالح المهيدي، لائحة في إلاح التعليم الزيتوني، مطبعة الاتحاد، تونس، 1929.

[40] – راجع تونس العميقة ، مس ، ص 143.

[41] – علي الزيدي، تاريخ الشعبة العصرية الزيتونية 51951– 1965)، ط1، منشورات مركز البحوث في علوم المركبات والمعلومات، تونس، 1986.. راجع كذلك الغابري، صوت الطالب الزيتوني حركة ثقافية سياسية، ، م س، ص ص 239–242.

[42] –محمد عابد الجابري، التعليم في المغرب العربي دراسة تحليلية نقدية لسياسة التعليم بالمغرب والجزائر وتونس، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، 1989.

المنارة للاستشارات